قراءة في كتاب المؤرخ الفرنسي:"March Bloch"بعنوان:

Les caractères originaux de l'Histoire rurale française

(1952)

Tome premier

Reading in the book of the French historian: "March Baloch" entitled: The original characters of French rural history (1952) First tome

أ.وصال احدران، جامعة ابن طفيل- قنيطرة -المغرب

ملخص: ليس عبثا القول بأن الثورة الفرنسية ومظاهرات 1968 كانتا أهم حدثين ميزا تاريخ فرنسا. لقد وضعت الثورة الفرنسية حدا نهائيا لاقتصاد الريع الذي كانت تدعمه ويحميه النظام الملكي لصالحه ولصالح نظام الأسياد في القرية الفرنسية. التي أدت إلى تأسيس اقتصاد حيوي وديناميكي تساهم فيه جميع شرائح المجتمع كل حسب قدراته التنافسية. أكثر من ذلك، لقد صارت للشعب سلطة إلى جانب سلطة الدولة وسلطة الكنيسة، ليتم وضع اللبنات الأساسية لما يعرف بـ "المجال السياسي.

الكلمات المفتاحية: الثورة الفرنسية، تاريخ القرية الفرنسية، المجال السياسي، نظام الأسياد، المَلَكيَّة، اقتصاد الريع، اقتصاد ليبرالي، الحضارة.

Abstract: It is not in vain to say that the French Revolution and the demonstrations of 1968 were the two most important events that marked the history of France. The French Revolution put a definitive end to the entire economy, which was supported and protected by the monarchy in

its favor and in the interest of the system of masters in the French village. Which led to the establishment of a vibrant and dynamic economy in which all segments of society contribute, each according to its competitive capabilities. Moreover, the people have gained authority alongside the authority of the state and the authority of the Church, so that the basic building blocks of what is known as the "political sphere" have been laid.

بين يدي الكتاب:

لقد ألف March Bloch كتاب: "الخصائص الأصيلة للتاريخ القروي الفرنسي" سنة 1931. ويعتبر March Bloch من أحد أبرز مؤسسي "مدرسة الحوليات" بفرنسا إلى جانب أسماء كبيرة لمؤرخين من مثل Fernand Brodel وLucien Febvre، هذا الأخير الذي حصل على حق إعادة كتابة الدراسة والإضافة إليها. لقد كان March Bloch يعتزم فعل ذلك، لكن الظروف لم تكن مواتية. لقد كان يعلم جيدا بأن المؤرخ لا يمكنه إيقاف التاريخ، وبأن كل كتاب جيد في التاريخ، ينبغي إعادة النظر فيه بعد 20 سنة، وإلا فإنه يكون قد جانب الهدف. وتم إصدار الدراسة عن "مؤسسة الدراسات الحضارية المقارنة" بأوسلو. وهذه المؤسسة تملك حق ملكية الكتاب. وها هي ذي قد سنحت الفرصة لفعل ذلك وإعادة النظر في نتائج البحث الأول، بعد أن سمحت للمؤرخ الشهير Lucien Febvre بفعل ذلك.

ملاحظات حول المنهج:

لقد وصل تاريخ العالم القروي بفرنسا إلى مرحلة تستوجب القيام بتوليفات Synthèses بدل تقديم تحليل، وطرح الأسئلة بدلا من البحث عن إيجاد حلول لها. وهذا واقع تستدعيه حالة كل تخصص معرفي. هذا لأن ادعاء تقديم حقائق قطعية يبقى مجرد افتراض. ففي فرنسا مناطق جد متباينة، وظروف طبيعية مختلفة، وتجمعات بشرية تنتمي لحضارات قديمة تساكنت فيما بينها داخل المجال الفرنسي وارتبطت بالحركية التي ميزت أوربا ككل. هذا معناه أن التاريخ القروي الفرنسي يحمل في طياته العديد من الصعوبات. ففرنسا القروية دولة جد مركبة. إن التاريخ بوصفه علما يهتم بدراسة التغير، حتى أن الإنسان لا يعير اهتمامه وانتباهه إلا لما يتغير بشكل

مفاجئ. ومن وجهة نظر إبستيمولوجية، فهذا الكتاب سيركز على الثابت والمتحول l'immuable et le changeant في تاريخ القرية الفرنسي.

وبناء على هذا، يبدو أن كتابة التاريخ بوصفه علمَ التَّغيُّر، سيتخذ بعدا جديدا في التأليف يعتمد على مختلف ما وفرته علوم الإنسان والمجتمع، من ديمغرافيا وجغرافيا وعلاقة السياسي بالديني بالاقتصادي، ودراسة علاقات القوة والصراع بين مختلف مكونات المجتمع.

ففي إطار دراسة الثابت والمتحول، سنرى كيف أن التحولات التي طرأت على العالم القروي وزلزلت البنيات القديمة غداة الثورة الفرنسية، كان سببها التداخل العلائقي بين تقنيات الإنتاج وطبيعة استغلال الأرض في ارتباط مع الأعراف المنظمة محليا من جهة وبين القوانين الصادرة عن مؤسسة القضاء باسم الحكم الملكي. وهذا ما سيشكل حجر الزاوية التي تدور حولها الدراسة التي نحن بصددها. فالقوانين كانت تتغير في الماضي أكثر مما هي عليه في الحاضر.

هذا البعد العلمي يمكن ملاحظته من خلال علامة بارزة في عنوان الكتاب. لقد تمت كتابة حرف H في كلمة Histoire على شكل حرف كبير Majuscule، مع أن موقعه يحتم كتابته حرفا صغيرا، وهذه إشارة دالة على أن المقصود هنا بالتاريخ لن يكون تاريخا لسرد أحداث وقعت في الماضي على شكل سرد قصصي أو على شكل كتاب تاريخ المؤسسة الحاكمة كما كان سائدا في أشكال كتابة التاريخ، بل يعلن المؤلف منذ "عتبة الكتاب" بأن هناك جديدا في التأليف التاريخ يراعي مختلف الفئات السوسيولوجية التي صنعت الأحداث.

أهمية الكتاب

يعتبر كتاب لصاحبه مارك بلوك من الكتب الهامة في المجال التاريخي كونه يقرب الباحثين والدارسين في الحقل التاريخ من عدة حقائق، أهمها منهجية التي يجب على المؤرخ اتباعها من أجل الوصول إلى الحقيقة التاريخية والتحلي بالموضوعية، حيث تخلى عن مفهوم التاريخ الخطي وكتب، بدلا من ذلك، من الحاضر أو الماضي القريب إلى الماضي البعيد، والعودة إلى الحاضر، أي تقنية قراءة الماضي من الحاضر، بالإضافة، لأول مرة، يجمع المؤرخ دراسات علم الآثار واللغويات والتاريخ والجغرافيا، كما أكد على ضرورة استغلال المساعدة

للتاريخ لإعادة تصور التي يقوم عليها مجتمع، ، وذلك لبناء توجه جديد للبحث، وذلك لدراسة الإنسان دراسة شاملة.

أهداف القراءة

تكمن أهداف القراءة في مثن هذا الكتاب في إبراز ضرورة الانتقال من البحث في الأحداث من خلال ما هو سياسي وعسكري إلى البحث في البنيات، وذلك باستحضار كل ما هو اجتماعي واقتصادي، وبالتالي تأثر حقل التاريخ بالمناهج والنظريات باقي العلوم الأخرى، وذلك بالقدرة على صياغة مفاهيم وتحيددها والخروج من الأزمة التي عرفتها الكتابة التاريخية، ونهدف من هذه المداخلة توضيح الانسلاخ من الكتابة التقليدية للتاريخ، والاعتماد على دراسة علمية تجريبية موضوعية واستثمار الفلسفة الفرنسية في عصر الأنوار التي عملت على مزج بين الفلسفة والتاريخ والجغرافيا.

قراءة في الكتاب:

الفصل الأول: المراحل الكبرى لاحتلال الأرض

1-الأصول: الرومان وأهالي بلاد الغال

كانت بلاد الغال من بين الأمم التي كانت تقف خصما عنيدا في وجه الإمبراطورية الرومانية. كما كانت هناك في فرنسا تجمعات من أصول جرمانية. والجرمان كلمة كانت تطلق على ما سيعرف لاحقا بألمانيا. كانت هذه الشعوب تشكل تجمعات عائلية تحت اسم Villa ou villare. هذه التجمعات أسستها أيضا الفئة المعروفة بالأسياد les seigneurs الذين أسسوا مجالات قروية domaines rurales، ويقوم الأسياد بزراعة المغروسات وتشييد المنازل والبنايات، وهذا ما يعرف بنظام "المَقَاصَّات" أو ما يعرف باسم les défrichements.

خلال القرنين 8 و9 كانت فرنسا، مثلها مثل باقي أوربا، تعاني من تراجع عدد السكان بفعل الاضطرابات والحروب، خصوصا مع العرب الذين عبر عنهم الكتاب باسم les Sarrasins والذين كانت فرنسا وإسبانيا تخوض معهم حروبا طاحنة. ومع فترة حكم الملك الكبير Charlemagne تم السماح باستقبال اللاجئين الإسبان واستيطانهم بالمراكز الفلاحية،

بعد استعادة الأراضي التي كان يحتلها العنصر العربي أثناء حملة الأمويين على فرنسا. لكن هذا لا يعني أن الملك Charlemagne كان عدائيا اتجاه العرب، بل على العكس من ذلك، كانت له علاقات ديبلوماسية مع الخليفة العباسي. وبعد وفاة هذا الملك، اضطربت الأوضاع، ومع فراغ المجالات وقلة السكان، ظهرت عمليات احتلال وحشية وتعسفية للأرض. بمعنى أن الحديث عن مِلكية propriété مسألة غير واردة في هذه الفترة.

للإشارة، في ظل حكم Charlemagne كلمة فرنسا لم تكن هي المتداولة في هذه الفترة، بل كانت فرنسا معروفة باسم pays des franques.

2-عصر المقاصات الكبرى:

خلال القرنين 13 و14، سادت في منطقة النورماندي ما يعرف بالحرب على الغابة. كانت الغابة موردا أساسيا لتعبئة الجيوش التي تستعد لخوض معارك طويلة الأمد وبعيدة عن الحدود الفرنسية، نتحدث هنا عن الحملة الصليبية، خصوصا في عهد الملك Alphonso Poitiers سنة 1969. ولكن أيضا الحروب التي كانت تخوضها فرنسا مع جرمانيا. أيضا، كانت الغابات مصدرا لتوفير كل ضروريات الحياة: حطب التدفئة، الخشب لصناعة السفن التجارية والحربية، السهام المستعملة في الحرب، والعربات، الخشب المستعمل في تصنيع مستلزمات المنازل من أبواب وكراسي وطاولات.

وهنا نعود لمفهوم المقاصات التي كان ملاكها يدعون أنهم أصليون وأن ارتباطهم بالأرض له جذور تاريخية عميقة، وهو ما تم التعبير عنه بلفظة les souches. لفهم أعمق لهذه الوضعية، ينبغي العودة إلى واقعة اجتماعية وسياسية عرفت بـ: les autochtones في مجتمع أثينا باليونان القديمة. إذ أن الأثيني الحقيقي هو الذي خرج من الأرض le surgissement de la terre، مثلما تحرج الأشجار. وبذلك فامتلاكهم للأرض جاء نتيجة خروجهم الأصلي منها. ومسألة القول بالانتماء الأصلي لازالت حاضرة في فرنسا حتى أيامنا هاته.

إلى جانب التجمعات في القرى المعروفة بالمقاصات défrichement هناك مفهوم آخر عرف باسم l'essart. حتى أن الأسياد les seigneurs كانوا يشيدون المقاصات حتى في الأراضي المقدسة أثناء الحروب الصليبية. والمقاصات التي تتجمع حول الغابة كانت تعطي فرصة للعيش داخل تجمع سكني، مادام أن هناك مساكن نائية، وهنا يظهر مصطلح آخر لتسمية التجمعات وهو Hameau : habitat en groupe. وخلال ذلك، بدأت تظهر بعد المدن ومركزها هو الكنيسة.

3-المقاصات الكبرى القروسطية والثورة الزراعية:

خلال القرون الوسطى، وبالضبط منذ 1300، مسألة فتح La conquête الأراضي بدأت تتراجع. وقد تنامى دور الغابة وارتفاع المردودية من ثرواتها الطبيعية، على حساب إعداد أراضي صالحة للاستثمار وللنشاط الزراعي. مما أتاح فرصة الاغتناء للملاكين الكبار والسادة. إلى جانب ذلك، كان المزارعون الصغار يتعرضون لمحاكمات جائرة جراء اقتحامهم لهذه المجالات من أجل رعي قطعانهم أو جمع الحطب. وبدأت الساكنة التي تقتات على الغابة تدافع عن حقوقها.

ثم إن فترة القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين شهدا تراجعا حادا في حجم السكان، لا سيما وأننا نتحدث عن حرب سبقة هذه الفترة بين فرنسا وإنجلترا عرفت بحرب المائة سنة. وكان على الأسياد والمزارعين بعد هذه الحرب، تنظيف وإعادة تأهيل الأراضي وتنقيتها من آثار الطاعون، كما كان عليه الحال بالمنطقة الشرقية خلا ل القرن السادس عشر: Bourgogne, Lorraine. في هذا السياق، استرجع نظام المقاصات حقوقه العرفية وأتاح إمكانية فتح الأراضي العذراء، لإعادة إعمار المراكز الزراعية بالسكان.

الفصل الثاني: الحياة الزراعية

1-الخصائص العامة للزراعية القديمة:

هناك اسم هيمن على الحياة القروية بفرنسا قديما إلى حدود عتبة القرن التاسع عشر، هذا الاسم كان مصدره غالبا من لغى بلاد الغال pays gaulois، مثله مثل العربة ذات العجلات

La charrue والطرق والحشائش، ويحيل على قدم الممارسات الزراعية بفرنسا، الامر يتعلق بكلمة Blé أو القمح. وهي لم تكن آنذاك ما تعنيه اليوم تماما.

كان القمح يغطي أكبر المساحات المزروعة في كل مكان. فالخبز كان المادة الغذائية الأساسية بامتياز. وكان السادة والأغنياء يواجهون إكراه المحافظة عليه وتوفير البذور وإكراه نقله من منطقة لأخرى. وهذا ما أدى إلى إحداث تغيير على غاية من الأهمية وهو الانتقال من نظام التبادل إلى نظام البيع والشراء منذ القرن السادس عشر.

منذ القرن الثالث، كان القمح أيضا المادة الأساسية لصناعة الخمر، والخمر يسهل نقله من منطقة لأخرى. وكانت أهمية الخمر تكمن في كونه جزء لا يتجزأ من أداء الطقوس والشعائر الدينية.

إلى جانب زراعة القمح، كانت هناك زراعة موجهة لإطعام الحيوانات وقطعان الماشية، إلى جانب الخضر وأشجار الفاكهة. وكانت موزعة في المناطق حسب نوعية المناخ والظروف الطبيعية.

وخلال القرن الثامن عشر، بدأت تحدث تحولات في منطقة باريس نظرا للمد الحضاري، ونظرا للتقدم الحاصل على مستوى تصنيع المواد الغذائية. ثم هناك التأثير الأمريكي على مستوى زراعة الذرى التي اجتاحت المراكز الزراعية الفرنسية.

كانت المشكلة التي واجهتها زراعة القمح هي كونها تعتمد تقنيا على خدمات العربة la charrue والعربة تجرها الحيوانات، لذلك ينبغي توفير الأعلاف لها، وتوفير إسطبلات. وأمام ندرة الأعلاف، يضطر المزارعون لجمعها من داخل الغابات والسهول، هذه المناطق التي هي في حوزة الأسياد، مما يطرح المشكلة القانونية أكثر من المشكلة التقنية.

2-أنماط دورات الأرض:

إذن، القمح هو مركز كل شيء فيكل مكان. لكن الأرض المزروعة بحاجة إلى فترة استراحة repos. ففي القرن الثامن عشر، كان يتم تنظيف الأرض وتخصيبها بإضرام النار فيها. وتتكر الأرض دون نشاط زراعي لتنمو فيها الحشائش التي ستوفر العلف للحيوانات، وتتحول

الحقول بالتالي إلى مراعي. وبعد مرور فترة الاستراحة هاته، يتم استعمال المحراث مرة أخرى وتعود الدورة لبدايتها من جديد.

للإشارة، فنظام المقاصات، لم يترك سوى مساحات قليلة فارغة وعذراء. واستغلال الغابة كان يخضع لرقابة الملك، كما كان عليه الحال مع الملك لويس السادس والوثيقة القانونية المعروفة آنذاك بـ:"فصل باريز" (Chapitre de Paris) التي تقنن وتحد من استغلال الأهالي المحليين للثروة الغابوية.

3-الأنظمة الزراعية: الحقول المفتوحة والممتدة:

إن نظاما زراعيا ما لا يتميز فقط وفق معطى نلاحق وتتابع المنتوجات، إذ كل واحد منها يشكل شبكة مركبة من الوصفات التقنية وأسس التنظيم الاجتماعي. ففي أراضي تتسم بمزروعات دورية ومؤقتة، نجد بأن الفلاح حيث يضع محراثه ويتبع الاتجاه الذي يحفره في الأرض. لذلك نجد واقعا مغايرا في المرتفعات، مع أن الحضارة القروية الفرنسية هي وريثة المرتفعات والهضاب. ويبقى أهم نظام زراعي هو نظام الحقول الممتدة التي هي بالضرورة حقول مفتوحة.

كان هناك تعايش وازدواجية في شكل الحقول، فبقدر ما كان هناك حقول مفتوحة وممتدة بقد ما كان هناك أخرى مغلقة. وهذا ما تحيل عليه الكلمة الألمانية الأصل Jardin أو حديقة qui dit jardin dit clos : il y a une clôture بمعنى هناك مجال مغلق. حيث يتم وضع الحواجز حول هذه الحقول إما بالحجارة أو بالأخشاب وحتى ببناء سور.

هناك ملكيات أخرى يطلق عليها اسم:"الحي" quartier وهي نوع من الحقول المفتوحة، وتتميز بكون الخطوط التي يرسمها المحراث يكون لها نفس الاتجاه لناحية معنية. خلال هذه الفترة، فترة القرون الوسطى، كان نظام العُرف المحلي هو السائد. وهو يقضي بتفعيل الزراعة القائمة على دورة الأرض واحترام فترة الاستراحة، وترك الحشائش تنمو لاستغلالها كمرعى بشكل جبري، مع احترام خصوصيات فصول السنة. وبما أن هذا التنظيم خاضع للعُرف، فهو لا يخلو من مرونة في تطبيق إلزامية دورة الأرض، إذ تتم أحيانا وفق إرادة المزارعين داخل حي معين من الأحياء.

وبعد حصاد القمح، تصبح الأرض مجالا لرعي قطعان الماشية التي تنتمي لنفس الجماعة بأكملها وليس لصاحب الأرض وحده. هذا النوع من الالتزامات العرفية سيكون أساسا تتبني عليه القواعد القانونية. وهذا ما قامت به الملكية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، إذ لا يحق لمالك أن يضع حواجز حول قطعة أرضه ليحول دون استغلالها وإغلاقها في وجه المنتمين لنفس الجماعة. لكن مع القرن الثامن عشر، ستظهر تشريعات جديدة ستعمل على نسف النظام العرفي والتقاليد. ظهور قوانين تحمي الملكية الخاصة. وما كان لهذا القانون أن يظهر إلا لأن هناك طلبا اجتماعيا.

ونذكر هنا بأن البرلمان نفسه كان يردد العبارة الشهيرة:"السنابل لصاحب الأرض والتبن للجميع" (l'épi est au maître de la terre et la paille, à tout le monde).

4-الأنظمة الزراعية: الحقول المفتوحة وغير النظامية

الأمر هنا لا يتعلق بنظام الفردانية ونحن نتحدث عن المجالات المغلقة، بل الأمر يتعلق باستغلال الأرض الجماعية للرعي بعد جني المحصول بشكل إلزامي أو ما يعرف قانونيا بمصطلح :"منتصف النهار" (le vocabulaire juridique du Midi).

فيما يخص الجانب التقني في استغلال الأراضي، هناك استعمال لمحراث تجره بهيمتان فقط، وهناك آخر يتحرك داخل الحقل مع وجود عجلات. الأول يستمد اسمه من اللغات الهندو-أوروبية وهو l'araire، والثاني الذي يظهر كمنافس للأول، ظهر متأخرا ويسمى la charrue وأصل الكلمة من بلاد الغال (Gaulois) كما توضح الخريطة أعلاه موقع هذا البلد. صارت العربة التي تتحرك على عجلات هي الغالبة في الاستعمال في الأراضي الممتدة، أما المحراث الذي تجره بهيمتان فيستعمل في المجالات الغير المنتظمة.

استعمال العربة ذات العجلات كان يطرح مشكلة تقنية وقانونية خلال عملية الحرث، هذا لأن العجلات تتطلب مساحة إضافية وكبيرة من أجل الدوران عند حدود أرض مجاورة، لذلك تترك مجالات فارغة بين حي معين وحي مجاور له، أما المحراث الذي تجره البهائم، فهو مرن ولا تشكل له الأراضي ذات الشكل الهندسي المربع عائقا في عملية الحرث.

5-الأنظمة الزراعية: الحقول المغلقة

في مقابل النظامين المفتوحين، نجد نظام الحقول المغلقة. فبالنسبة للمزارعين الإنجليز خلال القرن 18، كانوا يربطون فكرة الحقل المغلق بالتقدم الزراعي، بالنسبة لهم، في القرى الغنية، استعادة دورات الأرض واستغلال الأرض بعد جني المحاصيل كان مرفوقان بإغلاق الحقول. وأحيانا، تكون الظروف المناخية لمنطقة معينة هي السبب وراء إغلاق الحقول وتسييجها في مواجهة الرياح مثلا. هنا، كما هو الحال في مناطق الحقول المفتوحة، الخصائص المادية ليست سوى علامة ظاهرة لواقع اجتماعي عميق. على أن الإغلاق لا يعني بالضرورة توجها نحو الفردانية.

كخلاصة، إنه لمن الخطأ الحديث عن مساهمة الشعوب التاريخية في مسار القرى بفرنسا، شعوب مثل الرومان وبلاد الغال والجرمان والأصول السلافية، ينبغي الصعود أبعد من ذلك والبحث عن مساهمات الشعوب الما قبل تاريخية. لا ينبغي الحديث عنها ولا تصنيفها تحت مسمى:"مجموعات إثنوغرافية" بل الحديث عن الكل تحت مسمى "الحضارة".

الفصل الثالث: النظام السيادي إلى حدود أزمة القرنين 14 و15

1-النظام السيادي للقرون الوسطى العليا وأصوله:

نتحدث عن القرنين 8 و9. ونتحدث عن فرنسا حين كان اسمها pays des franques. كان الأسياد les seigneurs قد أسوا ما سبق أن أشرنا إليه باسم villae لكن المجال الذي يعيشون فيه هم يسمى Domaine أو مجال أو أيضا réserve seigneuriale أو محمية الأسياد. التابعون للسيد، والذين هم تحت حمايته، عليهم أن يعملوا لصالحه وفق وضعية قانونية يطلق عليها في القرون الوسطى les tenures.

تتشكل المحمية من منازل ومساكن وحدائق ومراعي وغابات وخاصة الحقول وإسطبلات الحيوانات. هذا السيد، وبحكم امتلاكه لمجالات واسعة فهو لا يخضع للقانون المطبق على الذين يحتلون مساحات صغيرة. هؤلاء الذين هم تحت حماية الأسياد، لديهم ثلاث وضعيات: فئة تشتغل في مقابل أجر. فئة ثانية تشتغل كعبيد. وثالثة محكوم عليهم بالأشغال الشاقة. هؤلاء

المحميون من ذرف الأسياد لا يخضعون، منذ عهد الملك Charlemagne لما يعرف بقانون الإرتباط بالأرض. فالأرض كانت لها وضعيتها الخاصة، ووضعها لا يتماشى مع وضعية الإنسان. فالمشتغلون لدى السيد تابعون له، إنهم رجاله، لأن من بينهم يشكل جيشه الذي به يدافع عن أتباعه.

في هذه الفترة، كانت هناك مسألة كراء الأراضي شائعة من طرف رجال الأسياد، ولم تكن هذه العملية تتم وفق تعاقد قانوني مكتوب، لكن الأمر يقوم بتدبيره الأسياد أنفسهم بشكل شفوي. فالعرف هو الذي كان يطغى على المعاملات.

2-من مالك كبير إلى مستأجر للأرض:

سنتموقع في حدود سنة 1200، حين كانت فرنسا تحت حكم Philippe-Auguste، لنرى ما الذي آل إليه نظام الأسياد؟ كان الأسياد يسيطرون على جهاز القضاء، ولا يخضعون للضوابط التي تضعها الملكية، حتى أنهم كانوا هم أنفسهم يترأسون جلسات المحاكمات.

في الفترة الكارولينجية، فترة Charlemagne، كان المجال le domaine يحتوي على طاحونة مائية (فالطاحونة الهوائية لم تكن قد انتشرت بعد في أوربا)، وكانت الساكنة تأتي بقمحها لهذه الطاحونات مما يشكل استفادة كبيرة للسيد، خوصا إذا تذكرنا أن القمح كان يستعمل لصناعة الخمر.

خلال هذه الفترة، كان حق التقاضي مدعوما بحق التسيير وضبط المحميين. إضافة إلى ذلك، صار من حق الأسياد استخلاص نسبة الأعشار les dîmes على المحاصيل من جهة، ومن جهة أخرى، طلب المساعدة المادية la taille من التابعين لهم والذين هم في خدمته. الذين هم في خدمة السيد، إما أنهم أحرار ويمكنهم استبدال سيد بآخر، لكن الأقنان لا يمكنهم فعل ذلك.

مع القرن 12 عشر، بدأ الحديث عن تراجع إحدى الفئات التابعة للأسياد، والمقصود هؤلاء الذين يقومون بالأعمال الشاقة. هناك إذن احتمالين لهذا التحول: إما ان السيد قام باستبدال

يد عاملة جديدة، أو أنه قام بتقليص مساحة المحمية نفسها. يبقى الاحتمال الثاني هو الصحيح. أكثر من ذلك، أحيانا تختفي المحمية تماما. لقد تحول السيد من قائد إلى مستأجر للأرض.

الفصل الرابع: التحولات في نظام السيادية والملكية منذ نهاية القرون الوسطى إلى الثورة الزراعية

1-التحولات القانونية لنظام السيادية: مآل السُّخرَة

انتهت فترة القرون الوسطى على وقع تأزم مداخيل الأسياد، ليبدأ عهد الأزمنة الحديثة. نسجل كذلك تراجع سلطة الأسياد بخصوص القضاء، ليتم تدمير هذه السلطة نهائيا مع الثورة الفرنسية. ورافق ذلك إعداد القضاة ودفع مرتباتهم إلى جانب ضباط الشرطة القضائية. ولقد شكل إقرار الجلسات العمومية الضربة القاضية. وكانت أكبر الحركات المناهضة لنظام السخرة قد انطلقت في القرن الثالث عشر واستمرت إلى منتصف القرن السادس عشر. ولم تكن التحولات الطارئة على مؤسسة القضاء هي التي ساهمت وحدها في تراجع مبدأ السخرة، بل أكثر من ذلك، الأزمة الاقتصادية التي لحقت ثروات الأسياد.

2-أزمة ثروات الأسياد:

خلال القرنين الأخيرين من فترة القرون الوسطى، في كل أوروبا الغربية والوسطى، سادت مرحلة من الاستياء القروي وتراجع أعداد السكان، كان ذلك ضريبة دفعتها أوروبا جراء كثرة الحروب الطاحنة وانتشار الاوبئة لدرجة أن العديد من الدواوير انقرضت للأبد. ثم لا ننسى حرب المائة سنة بين إنجلترا وفرنسا وآثار هذا الوضع لا ينمحي إلا بعد مرور قرون، وبعض الآثار لا تمحى أبدا.

وبالتالي، هذا ما يفسر حياة البؤس التي عاشها المزارعون، رما كان الرابح الوحيد من هذه الحروب هم فئة الفرسان الذين لم يكونوا يدفعون الضرائب. ويبقى أهم مؤشر على الأزمة المالية هو ان تداول النقود كان يتسم بالضعف في زمن كان فيه النقد نادرا وتداوله أضعف. لذلك عمل النظام الملكي على سك نقود ذات قيمة عالية من الذهب والفضة، والتعامل بالأوراق النقدية لم يكن معروفا بعد.

3-ردة فعل الأسياد: الملكية الكبرى والصغرى

محاربة اقتصاد الريع والقضاء عليه كان حدثا أوروبيا بامتياز. ومسألة بذل الأسياد جهودا يائسة لإعادة تشكيل ثرواتهم، كان فعلا وحدثا أوربيا أيضا. في ألمانيا وإنجلترا وبولونيا كما هو الحال بفرنسا، نفس المأساة الاقتصادية تطرح مشاكل متشابهة. لكن الأوضاع الاجتماعية والسياسية المتباينة، رسمت للمصالح خطوطا متباينة للفعل. ومع الثورة الفرنسية 1789، سينهار تماما نظام الأسياد مخلفا وراءه أيضا النظام الملكي.

الفصل الخامس: المجموعات الاجتماعية

1-Le manse وجماعة العائلة:

لم يكن هناك حديث عن الأفراد في المجتمعات القديمة. الشخص المنعزل وحده لا يحسب له حساب. كانت هناك تجمعات، من كل الأحجام، وكان السادة أو الأمراء قد اعتادوا أن يجدوا أمامهم هذه التجمعات، فيقومون بإحصائها وفرض الضرائب عليها.

كانت الخلية الأولية والوحدة المجالية والإنسانية، بما في ذلك من منازل وحقول، خلال القرون الوسطى العليا (ق 8-9)، هي تلك المسماة le manse، وظهرت صيغتها في قانون "منتصف النهار". لدراسة هذه الوحدة، ينبغي الانطلاق من نظام الأسياد مادام هذا النظام هو وحده الذي نقل لنا أخبارا عنها. كانت وحدة le manse تلعب وحدة الإدراك unité de perception، وكانت هي الوحدة التي تدفع الضرائب، وهي وحدة لا تتجزأ وتتميز بالثبات immuable، وكانت تجسد اقتصاد الريع الذي كان يعيش عليه الأسياد، وثباتها هذا متفق عليه وفق الأعراف المحلية.

أغلبية التابعين للأسياد سواء كانوا، كما رأينا سلفا، من العمال المأجورين أو العبيد أو المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، كانوا يدخلون في تشكيل هذه الوحدة، ولكن ليس جميعهم. هذه الوحدات كانت عبارة عن مجموعات عائلية، والمجال الذي تستقر عليه له حدوده الخاصة وليس متناثر الأطراف.

مع بداية القرون الوسطى، تعرضت هذه الوحدات للانحلال، وصارت خاضعة للتجزيئ، وهذا طبعا سينعكس سلبا مسببا أزمة اقتصادية حادة للأسياد. وشرعت هذه الوحدات في استرداد كل ما سلبها الأسياد دون رحمة. وقد شكل هذا الحدث لحظة انتقالية في كل مكان. وظلت هذه الوحدات تجمع بين أحضانها كل الإخوة وأبنائهم في وحدة عائلية تمتلك بشكل جماعي ومشترك. فمثلا، في بلدة Caen، كان يعيش في منزل واحد عشرة أزواج وسبعون فردا سنة 1484.

2-الجماعة القروية: الجماعي

لأول مرة سيتم استعمال هذه العبارة. وهذا يعطي الانطباع كما لو أنها لم تكن موجودة من قبل. نقول هذا لأن هذا المصطلح لم يكن متداولا حتى حدود القرن الثالث عشر. لكن سكوت النوص عن هذا المصطلح لا يعود للوقائع فقط، لكن المسؤولية يتحملها هؤلاء الذين كانوا يقدمون شهادات عن العصر.

أول ما ظهر كلمة "جماعي" كانت تعبيرا عن تلك الوحدة التي أسستها البرجوازية الصغيرة بالمدن، في إطار التضامن والتعاون المتبادل فيما بينهم باعتبارهم أفرادا متساوون خلال القرن 11-12 و13. وعملوا على اختراق والقضاء على "فصل السيدة القديسة" (Chapitre de Notre-Dame) الذي كان يقول بوجوب نظام السخرة. وقد أقر القضاة صفة "الشخصية المعنوية" للجماعة، بمعنى أنها تتسم بالاستمرارية حتى بعد وفاة مؤسسيها الأصليين. لقد حازت الجماعة مكانة لها تحت شمس القانون.

3-الطبقات:

لنترك جانبا الأسياد والبرجوازيين، هؤلاء المقيمون في المدينة أو في إقطاعاتهم بالقرية حيث يتلقون مداخيل الريع، هؤلاء لا يدخلون في مجتمع المزارعين، ولنركز على الذين يعيشون من مقابل عملهم في الأرض. ثم غن الدواوير قد تغيرت ولم تعد في القرن 18 عشر كما كانت عليه في القرون الوسطى، إذ بدأت تظهر ملامح اللامساواة.

لقد كانت هناك تفاوتات في الأوضاع القانونية بين ساكنة الدواوير، ومحاولة توضيح ذلك سيكون نوعا من محاولة تحطيم أحد الأبواب مع أنه مفتوح. كان هناك أفراد يعيشون في

التجمعات السيادية وهم "أحرار" جنبا إلى جنب مع "الأقنان". وكانت هناك وحدة le manse تشكل واحدة من هذه الطبقات. ولكن يبقى من الصعب اليوم معرفة وتحديد ثروة كل طبقة وحجمها. طبعا، كانت هناك تنافسية بين طبقات كل مجتمع، لكن التحولات الاقتصادية في العصور الحديثة ستجعل هذا التنافس أكثر حدة.

الفصل السادس: بدايات الثورة الزراعية

عادة ما يركز المؤرخون حديثهم عن الثورة الزراعية بربطها بالثورة الصناعية، وبأن التحولات الزراعية بالقرية الفرنسية هي تحولات في الأساليب التقنية فقط، لكن هذا الكتاب سينحو اتجاها مغايرا تماما. فاستعمال التقنية لم يكن وليد الثورة الصناعية. وبالتالي فإن أهم مميزات الثورة الزراعية هو القضاء التدريجي لنظام السخرة الجماعي في مناطق زراعية كان يسود فيها كل ما يتعلق باستعمال التقنيات الجديدة في ذلك الوقت.

الفصل السابع: الامتدادات: الماضي والحاضر

إن التاريخ لقروي للثورة الفرنسية لا يمكن دراسته إلا في تداخله مع الظواهر السياسية في مختلف مراحله. فالاجتماعات التي سبقت الإعلان عن الثورة الفرنسية والتي كانت تناقش قضايا السياسة الزراعية، لم تكن أمام طاولة فارغة، فالمَلَكيَّة كانت قد طرحت المشاكل وحاولت إيجاد حلول لها. والنظام الجديد الذي خلف النظام الملكي، أخذ على عاتقه إتمام الإصلاحات، ولكن لم يكن في نيته أن يحاكي الملكية في طرق طرح المشاكل ولا طرق حلها. فقد عمل بالمقابل على الاستفادة من فشل محاولات الإصلاح في الماضي، هذا لأن النظام الجديد وجد نفسه أمام طبقات متباينة، ثم إن النظام الجديد سيشتغل في ميدان كان ان تم فيه القضاء على العديد من العراقيل.

خلاصة القول

إذا كان قد كُتِبَ النجاح للثورة الفرنسية، فهذا راجع إلى عامل حاسم في تاريخ فرنسا، وأوروبا بشكل عام، الأمر يتعلق أساسا بالصراع الطويل بين الملكيات والكنيسة، هذه الثنائية التي استعبدت الشعوب وأرهقتهم في نظام يخدم مصالح الأقلية وتشجيع اقتصاد الريع. لكن انتفاضة

القرى الفرنسية بجميع مكوناتها من مختلف الحضارات، فرضت سلطة ثالثة: سلطة الشعب، وفي نفس الوقت القضاء على النظام الملكي من مجموعة كبيرة من الدول.

لقد ظهر الشعب le peuple كطرف ثالث في النقاش حول القضايا المصيرية، وتم تشكيل ما يعرف بـ"المجال السياسي" l'espace politique. هذا المجال السياسي الذي لم تعرفه، إلى يومنا هذا، كل الدول العربية الإسلامية، كما يوضح ذلك المفكر المغربي والمؤرخ الكبير "محمد عابد الجابري" (العقل العربي السياسي – محدداته وتجلياته، 1993).